



المقطع بهم في غير أوطانهم .

وإنما قدر الله هذا التقدير، وحصر
الضيء في هؤلاء العيين لـ ﴿كسي
لا يكون دولة﴾ أي: مداولة
واختصاصاً ﴿بين الأغنياء منكم﴾ فإنه
لولا يقدره، لتداولته الأغنياء الأقرىء،
ولما حصل لغيرهم من العاجزين منه
شيء، وفي ذلك من الفساد ما
لا يعلمه إلا الله، كما أن في اتباع
أمر الله وشرعه من المصالح ما لا يدخل
تحت الحصر، ولذلك أمر الله بالقاعدة
الكلية والأصل العام، فقال: ﴿وما
أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه
فانتهوا﴾ وهذا شامل لأصول الدين
وفروعه، ظاهره وباطنه، وأن ما جاء
به الرسول يتعين على العباد الأخذ به
وابتباعه، ولا تحل مخالفته، وأن نص
الرسول على حكم الشيء كنعص الله
تعالى، لا رخصة لأحد ولا عذر له
في تركه، ولا يجوز تقديم قول أحد
على قوله، ثم أمر بتقواه التي بها عمارة
القلوب والأرواح [والدنيا والآخرة]،
وبها السعادة الدائمة والفوز العظيم،
وبإضاعتها الشقاء الأبدي والعذاب
السرمدى، فقال: ﴿واقفوا الله إن الله
شديد العقاب﴾ على من ترك التقوى،
وآثر اتباع الهوى .

﴿٨﴾ ثم ذكر تعالى الحكمة والسبب

الموجب لجعله تعالى الأموال أموال

الضيء لمن قدرها له، وأنهم حقيقون
بالإعانة، مستحقون لأن تجعل لهم،
وأنهم ما بين مهاجرين قد هجروا
المحبيات والمألوفات، من الديار
والأوطان والأحباب والخلان
والأموال، رغبة في الله ونصرة
لدين الله، وعجة لرسول الله، فهؤلاء
هم الصادقون الذين عملوا بمقتضى
إيمانهم، وصدقوا إيمانهم بأعمالهم
الصالحة والعبادات الشاقة، بخلاف من
ادعى الإيمان وهو لم يصدق به بالجهد
والهجرة وغيرهما من العبادات، وبين
أنصار وهم الأوس والخزرج الذين
آمنوا بالله ورسوله طوعاً ومحبة
واختياراً، وآووا رسول الله ﷺ،
ومنعوه من الأحمر والأسود، وتبوؤوا
دار الهجرة والإيمان حتى صارت
موثلاً ومرجعاً يرجع إليه المؤمنون،
ويلجأ إليه المهاجرون، ويسكن بحماه
المسلمون إذ كانت البلدان كلها بلدان
حرب وشرك وشر، فلم يزل أنصار
الدين تأوي إلى الأنصار، حتى انتشر
الإسلام وقوي، وجعل يزيد شيئاً
فشيئاً، وينمو قليلاً قليلاً، حتى فتحوا
القلوب بالعلم والإيمان والقرآن،
والبلدان بالسيف والسنان .

الذين من جملة أوصافهم الجميلة
أنهم ﴿يحبون من هاجر إليهم﴾ وهذا
لمحبتهم لله ولرسوله، أحبوا أحبابه،
وأحبوا من نصر دينه .

﴿ولا يجدون في صدورهم حاجة
مما أوتوا﴾ أي: لا يجدون المهاجرين
على ما أتاهم الله من فضله وخصم به
من الفضائل والمناقب التي هم أهلها،
وهذا يدل على سلامة صدورهم،
وانتفاء الغل والحقد والحسد عنها .

ويدل ذلك على أن المهاجرين أفضل
من الأنصار، لأن الله قدمهم بالذكر،
وأخبر أن الأنصار لا يجدون في
صدورهم حاجة مما أوتوا، فدل على
أن الله تعالى أتاهم ما لم يوت الأنصار
ولا غيرهم، ولأنهم جمعوا بين النصرة

والهجرة .

وقوله: ﴿ويؤثرون على أنفسهم ولو
كان بهم خصاصة﴾ أي: ومن أوصاف
الأنصار التي فاقوا بها غيرهم، وتميزوا
بها على من سواهم، الإيثار، وهو
أكمل أنواع الجود، وهو الإيثار
بمحاب النفس من الأموال وغيرها،
وبذلها للتغير مع الحاجة إليها، بل مع
الضرورة والخصاصة، وهذا لا يكون
إلا من خلق زكي، ومحبة لله تعالى
مقدمة على محبة شهوات النفس
ولذاتها، ومن ذلك قصة الأنصاري
الذي نزلت الآية بسببه، حين أثر ضيفه
بطعامه وطعام أهله وأولاده، وباتوا
جياًعاً، والإيثار عكس الأثرة، فالإيثار
محمود، والأثرة مذمومة، لأنها من
خصال البخل والشح، ومن رزق
الإيثار فقد وقى شح نفسه ﴿ومن يؤق
شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾
ووقاية شح النفس، يشمل وقايتها
الشح في جميع ما أمر به، فإنه إذا وقى
العبد شح نفسه، سمحت نفسه
بأوامر الله ورسوله، ففعلها طائعاً
منقاداً، منشرحاً بها صدره، وسمحت
نفسه بترك ما نهى الله عنه، وإن كان
محبوباً للنفس، تدعو إليه وتطلع إليه،
وسمحت نفسه ببذل الأموال في
سبيل الله وابتغاء مرضاته، وبذلك
يحصل الفلاح والفوز، بخلاف من لم
يوق شح نفسه، بل ابتلي بالشح بالخير،
الذي هو أصل الشر ومادته، فهذا^(١)

الصنفان الفاضلان الزكيان هم
الصحابة الكرام والأئمة الأعلام،
الذين حازوا من السوابق والفضائل
والمناقب ما سبقوا به من بعدهم،
وأدركوا به من قبلهم، فصاروا أعيان
المؤمنين، وسادات المسلمين، وقادات
المؤمنين^(٢) .

وحسب من بعدهم من الفضل أن
يسير خلفهم، ويأتم بهداهم، ولهذا
ذكر الله من اللاحقين من هو مؤتم بهم
وسائر خلفهم فقال: ﴿والذين جاؤوا
من بعدهم﴾ أي: من بعد المهاجرين

(٢) كذا في ب، وفي أ: المؤمنين .

(١) كذا في ب، وفي أ: فهؤلاء .

الإدبار عن القتال والنصرة، ولا يحصل لهم نصر من الله.

والسبب الذي أوجب لهم ذلك^(٦)، أنكم - أيها المؤمنون - ﴿أشد رهبة في صدورهم من الله﴾ فخافوا منكم أعظم مما يخافون الله، وقدموا مخافة المخلوق الذي لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعاً ولا ضرراً، على مخافة الخالق، الذي بيده الضر والنفع، والعطاء والمنع.

﴿ذلك بأنهم قوم لا يفقهون﴾ مراتب الأمور، ولا يعرفون حقائق الأشياء، ولا يتصورون العواقب، وإنما الفقه كل الفقه، أن يكون خوف الخالق ورجاؤه وعبته مقدمة على غيرها، وغيرها تبعاً لها.

﴿١٤﴾ ﴿لا يقاتلونكم جميعاً﴾ أي: في حال الاجتماع ﴿إلا في قرية محصنة أو من وراء جدر﴾ أي: لا يشتتون لقتالكم^(٧) ولا يعزمون عليه، إلا إذا كانوا متحصنين في القرى، أو من وراء الجدر والأسوار.

فإنهم إذ ذاك ربما يحصل منهم امتناع، اعتماداً [على] حصونهم وجدرهم، لا شجاعة بأنفسهم، وهذا من أعظم الذم، ﴿بأسهم بينهم شديد﴾ أي: بأسهم فيما بينهم شديد، لا أفة في أبدانهم ولا في قوتهم، وإنما الأفة في ضعف إيمانهم وعدم اجتماع كلمتهم، ولهذا قال: ﴿تحسبهم جميعاً﴾ حين تراهم مجتمعين ومظاهرين.

﴿و﴾ لكن ﴿قلوبهم شتى﴾ أي: متباغضة متفرقة مشتتة.

﴿ذلك﴾ الذي أوجب لهم اتصافهم بما ذكر ﴿بأنهم قوم لا يعقلون﴾ أي: لا عقل عندهم، ولا لب، فإنهم لو

كمال رحمة الله وشدة رأفته وإحسانه بهم، الذي من جملته، بل من أجله، توفيقهم للقيام بحقوق الله وحقوق عباده.

فهؤلاء الأصناف الثلاثة هم أصناف هذه الأمة، وهم المستحقون للفيء الذي مصرفه راجع إلى مصالح الإسلام.

وهؤلاء أهله الذين هم أهله، جعلنا الله منهم، بمنه وكرمه.

ثم تعجب تعالى من حال المنافقين الذين طمَّعوا إخوانهم من أهل الكتاب، في نصرتهم وموالاتهم على المؤمنين، وأنهم يقولون لهم: ﴿لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً﴾ أي: لا نطيع في عدم نصرتكم أحداً يعذلنا أو يخوفنا، ﴿وإن قوتلتم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون﴾ في هذا الوعد الذي غروا به إخوانهم، ولا يستكثروا هذا عليهم، فإن الكذب وصفهم، والغرور والخداع مقارنهم، والتفاق والجبن يصحبهم، ولهذا كذبهم [الله] بقوله، الذي وجد تحببه كما أخبر الله به، ووقع طبق ما قال، فقال: ﴿لئن أخرجوا﴾ من ديارهم جلاء ونفياً ﴿لا يخرجون معهم﴾ لمحبتهم للأوطان، وعدم صبرهم على القتال، وعدم وفائهم بوعدهم^(٨).

﴿ولئن قوتلوا لا ينصرونهم﴾ بل يستولي عليهم الجبن، ويملكهم الفشل، ويخذلون إخوانهم، أحوج ما كانوا إليهم.

﴿ولئن نصروهم﴾ على الفرض والتقدير^(٩) ﴿ليولن الأدبار ثم لا ينصرون﴾ أي: ليحصل منهم

والأنصار ﴿يقولون﴾ على وجه النصح لأنفسهم ولسائر المؤمنين ﴿ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان﴾

وهذا دعاء شامل لجميع المؤمنين، السابقين من الصحابة، ومن قبلهم ومن بعدهم، وهذا من فضائل الإيمان أن المؤمنين ينتفع بعضهم ببعض، ويدعو بعضهم لبعض، بسبب المشاركة في الإيمان المقتضي لعقد الأخوة بين المؤمنين^(١٠)، التي من فروعها أن يدعو بعضهم لبعض، وأن يجب بعضهم بعضاً.

ولهذا ذكر الله في الدعاء نفي الغل عن القلب، الشامل لقليل الغل وكثيره^(١١)، الذي إذا انقضى ثبت ضده، وهو المحبة بين المؤمنين والموالات والنصح، ونحو ذلك مما هو من حقوق المؤمنين.

فوصف الله من بعد الصحابة بالإيمان، لأن قولهم: ﴿سبقونا بالإيمان﴾ دليل على المشاركة في الإيمان^(١٢)، وأنهم تابعون للصحابة في عقائد الإيمان وأصوله، وهم أهل السنة والجماعة، الذين لا يصدق هذا الوصف التام إلا عليهم، ووصفهم بالإقرار بالذنوب والاستغفار منها، واستغفار بعضهم لبعض، واجتهادهم في إزالة الغل والحقد عن قلوبهم لإخوانهم المؤمنين، لأن دعاءهم بذلك مستلزم لما ذكرنا، ومتضمن لمحبة بعضهم بعضاً، وأن يجب أحدهم لأخيه ما يجب لنفسه، وأن ينصح له حاضراً وغائباً، حياً وميتاً، ودلت الآية الكريمة [على] أن هذا من جملة حقوق المؤمنين بعضهم لبعض، ثم ختموا دعاءهم باسمين كريمين، دالين على

(١) كذا في ب، وفي أ: للمؤمنين.

(٢) في ب: لقليله وكثيره.

(٣) في ب: المشاركة فيه.

(٤) في ب: بالوعد.

(٥) كذا في ب، وفي أ: على ضرب المثل.

(٦) في ب: حملهم على ذلك.

(٧) في ب: على قتالكم.

العبد نفسه، وأنه ينبغي له أن يتفقدتها، فإن رأى زللاً تداركه بالإقلاع عنه، والتوبة النصوح، والإعراض عن الأسباب الموصلة إليه، وإن رأى نفسه مقصراً في أمر من أوامر الله، بذل جهده واستعان بربه في تكميله وتسميمه، وإتقانه، ويقايس بين من الله عليه وإحسانه وبين تقصيره، فإن ذلك يوجب له الحياء بلا محالة.

والحرمان كل الحرمان، أن يغفل العبد عن هذا الأمر، ويشابه قوماً نسوا الله وغفلوا عن ذكره والقيام بحقه، وأقبلوا على حظوظ أنفسهم وشهواتها، فلم ينجحوا، ولم يحصلوا على طائل، بل أنساهم الله مصالح أنفسهم، وأغفلهم عن منافعها وفوائدها، فصار أمرهم فرطاً، فرجعوا بخسارة الدارين، وغبنوا غيباً لا يمكنهم تداركه، ولا يجبر كسره، لأنهم هم الفاسقون، الذين خرجوا عن طاعة ربهم وأوضاعوا في معاصيه، فهل يستوي من حافظ على تقوى الله ونظر لما قدم لغيره، فاستحق جنات النعيم، والعيش السليم - مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين - ومن غفل عن ذكر الله، ونسي حقوقه، فشقي في الدنيا، واستحق العذاب في الآخرة، فالأولون هم الفائزون، والآخرون هم الخاسرون.

ولما بين تعالى لعباده ما بين، وأمرهم^(١) ونهاهم في كتابه العزيز، كان هذا موجيباً لأن يبادروا إلى ما دعاهم إليه وحثهم عليه، ولو كانوا في القسوة وصلابة القلوب كالجبال الرواسي، فإن هذا القرآن لو أنزله على جبل لرأيت خاشعاً متصدعاً من خشية الله أي: لكمال تأثيره في القلوب، فإن مواعظ القرآن أعظم المواعظ على الإطلاق، وأوامره ونواهيه محتوية على الحكم والمصالح المقرونة بها، وهي من أسهل شيء على

خالدين فيها ﴿ كما قال تعالى: ﴿إنما يدعو حزيه ليكونوا من أصحاب المعير﴾ وذلك جزاء الظالمين﴾ الذين اشتروا في الظلم والكفر، وإن اختلفوا في شدة العذاب وقوته، وهذا دأب الشيطان مع كل أوليائه، فإنه يدعوهم ويدلهم إلى ما يضرهم بغرور، حتى إذا وقعوا في الشباك، وحاقت بهم أسباب الهلاك، تبرأ منهم وتخلى عنهم.

واللوم كل اللوم على من أطاعه، فإن الله قد حذر منه وأنذر، وأخبر بمقاصده وغاياته ونهايته، فالقدم على طاعته عاص على بصيرة لا عذر له.

﴿١٨ - ٢١﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا

اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون * ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون * لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون * لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيت خاشعاً متصدعاً من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين بما يوجهه الإيمان ويقتضيه من لزوم تقواه، سرراً وعلانية، في جميع الأحوال، وأن يراعوا ما أمرهم الله به من أوامره وشرائعه وحدوده، وينظروا ما لهم وما عليهم، وماذا حصلوا عليه من الأعمال التي تنفعهم أو تضرهم في يوم القيامة، فإنهم إذا جعلوا الآخرة نصب أعينهم وقبلة قلوبهم، واهتموا بالمقام بها، اجتهدوا في كثرة الأعمال الموصلة إليها، وتصفيتها من القواطع والعوائق التي توقفهم عن السير أو تعوقهم أو تصرفهم، وإذا علموا أيضاً أن الله خبير بما يعملون، لا تخفى عليه أعمالهم، ولا تضيع لديه ولا يهملها، أوجب لهم الجهد والاجتهاد.

وهذه الآية الكريمة أصل في محاسبة

كانت لهم عقول، لأنثروا الفاضل على المفضول، ولما رضوا لأنفسهم بأبخس الخطين، ولكانت كلمتهم مجتمعة، وقلوبهم مؤتلفة، فبذلك يتناصرون ويتعاضدون، ويتعاونون على مصالحهم ومنافعهم الدينية والدنيوية.

مثل هؤلاء المخذولين من أهل الكتاب، الذين انتصر الله لرسوله منهم، وأذاهم الخزي في الحياة الدنيا، وعدم نصر من وعدهم بالمعونة ﴿كمثل الذين من قبلهم قريباً﴾ وهم كفار قريش الذين زين لهم الشيطان أعمالهم، وقال: ﴿لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه﴾ وقال ﴿إني بريء منكم إني أرى ما لا ترون﴾ الآية.

فغرتهم أنفسهم، وغرهم من غرهم، الذين لم ينعفوههم ولم يدفعوا عنهم العذاب، حتى أتوا «بئذراً» بفخرهم وخيلائهم، ظانين أنهم مدركون برسول الله والمؤمنين أمانيهم.

فنصر الله رسوله والمؤمنين عليهم، فقتلوا كبارهم وصناديدهم، وأسروا من أسروا منهم، وفر من فر، وذاقوا بذلك وبال أمرهم وعاقبة شركهم وبغيهم، هذا في الدنيا، ﴿ولهم﴾ في الآخرة عذاب النار، ومثل هؤلاء المنافقين الذين غروا إخوانهم من أهل الكتاب ﴿كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر﴾ أي: زين له الكفر وحسنه ودعاه إليه، فلما اغتر به وكفر، وحصل له الشقاء، لم ينفعه الشيطان الذي تولاها ودعاه إلى ما دعاه إليه، بل تبرأ منه و ﴿قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين﴾ أي: ليس لي قدرة على دفع العذاب عنك، ولست بمفرغ عنك مثقال ذرة من الخير، ﴿فكان عاقبتهم﴾ أي: الداعي الذي هو الشيطان، والمدعو الذي هو الإنسان حين أطاعه ﴿أنهما في النار

(١) في ب: وأمر عباده ونهاهم.

النفوس، وأيسرها على الأبدان، خالية من التكلف^(١) لا تناقض فيها ولا اختلاف، ولا صعوبة فيها ولا اعتساف، تصلح لكل زمان ومكان، وتليق لكل أحد.

السالم من كل عيب وآفة ونقص، المعظم المجد، لأن القدوس يدل على التنزيه عن كل نقص، والتعظيم لله في أوصافه وجلاله.

ثم أخبر تعالى أنه يضرب للناس الأمثال، ويوضح لعباده في كتابه الحلال والحرام، لأجل أن يتفكروا في آياته ويتدبروها، فإن التفكر فيها يفتح للعبد خزائن العلم، ويبين له طرق الخير والشر، ويحسه على مكارم الأخلاق، ويحاسب الشيم، ويزجره عن مساوئ الأخلاق، فلا أنفع للعبد من التفكر في القرآن والتدبر لمعانيه.

﴿المؤمن﴾ أي: المصدق لرسله وأنبيائه بما جاؤوا به، بالآيات، والحجج الواضحات.

﴿المعزى﴾ الذي لا يغالب ولا يمانع، بل قد قهر كل شيء، وخضع له كل شيء، ﴿الجبار﴾ الذي قهر جميع العباد، وأذعن له سائر الخلق، الذي يجبر الكسير، ويعني الفقير، ﴿التكبر﴾ الذي له الكبرياء والعظمة، المنزه عن جميع العيوب والظلم والجور.

﴿٢٢ - ٢٤﴾ ﴿هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم﴾ هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون * هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم﴾ هذه الآيات الكريمات قد اشتملت على كثير من أسماء الله الحسنى وأوصافه العلى، عظيمة الشأن، وبديعة البرهان، فأخبر أنه الله المألوه المعبود، الذي لا إله إلا هو، وذلك لكماله العظيم، وإحسانه الشامل، وتدبيره العام، وكل إله سواه^(٢) فإنه باطل لا يستحق من العبادة مثقال ذرة، لأنه فقير عاجز ناقص، لا يملك لنفسه ولا لغيره شيئاً، ثم وصف نفسه بعموم العلم الشامل، لما غاب عن الخلق وما يشاهدونه، وبعموم رحمته التي وسعت كل شيء ووصلت إلى كل حي، ثم كرر [ذكراً] عموم إلهيته وانفراذه بها، وأنه المالك لجميع الممالك، فالعالم العلوي والسفلي وأهله، الجميع ممالك لله، فقراء مدبرون.

﴿سبحان الله عما يشركون﴾ وهذا تنزيه عام عن كل ما وصفه به من أشرك به وعانده، ﴿هو الله الخالق﴾ لجميع المخلوقات ﴿البارئ﴾ للمبروات ﴿المصور﴾ للمصورات، وهذه الأسماء متعلقة بالخلق والتدبير والتقدير، وأن ذلك كله قد انفرد الله به، لم يشاركه فيه مشارك.

﴿له الأسماء الحسنى﴾ أي: له الأسماء الكثيرة جداً، التي لا يحصيها ولا يعلمها أحد إلا الله هو، ومع ذلك، فكلها حسنى أي: صفات كمال، بل تدل على أكمل الصفات وأعظمها، لا نقص في شيء منها بوجه من الوجوه، ومن حسننا أن الله يحبها، ويجب من محبتها، ويجب من عبادة أن يدعو ويسألوه بها.

ومن كماله، وأن له الأسماء الحسنى والصفات العليا، أن جميع من في السماوات والأرض مفتقرون إليه على الدوام، يسبحون بحمده، ويسألونه حوائجهم، فيعطيهم من فضله وكرمه ما تقتضيه رحمته وحكمته، ﴿وهو العزيز الحكيم﴾ الذي لا يريد شيئاً إلا ويكون،

﴿القدوس السلام﴾ أي: المقدس



ولا يكون شيئاً إلا الحكمة ومصلحة.

تم تفسير سورة الحشر،
قله الحمد على ذلك،
والمنة والإحسان

تفسير سورة الممتحنة [وهي] مدنية

﴿١ - ٩﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيل الله وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل﴾ إن يتفقوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء وودوا لو تكفروا * لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة يفضل بينكم والله بما تعملون بصير * قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم وما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك وما أملك لك من الله

(٢) في ب: غيره.

(١) كنا في ب وفي أ: وأقلها تكلفاً.



﴿يخرجون الرسول وإياكم﴾ أيها المؤمنون من دياركم، ويشردونكم من أوطانكم، ولا ذنب لكم في ذلك عندهم، إلا أنكم تؤمنون بالله ربكم الذي يتعين على الخلق كلهم القيام بعبوديته، لأنه رباهم، وأنعم عليهم بالنعمة الظاهرة والباطنة، وهو الله تعالى.

فلما عرضوا عن هذا الأمر، الذي هو أوجب الواجبات، وقسم به، عادوكم، وأخرجوكم - من أجله - من دياركم، فأبى دين، وأبى مروءة وعقل، يبقى مع العبد إذا والى الكفار الذين هذا وصفهم في كل زمان أو مكان؟! ولا يمنعهم منه إلا خوف، أو مانع قوي.

﴿إن كنتم خرجهما فإياكم﴾ أي: إن كان خروجكم مقصودكم به الجهاد في سبيل الله، لإعلاء كلمة الله، وابتغاء مرضاة الله^(٣)، فاعملوا بمقتضى هذا، من موالاته أولياء الله ومعاداة أعدائه، فإن هذا هو الجهاد في سبيله^(٤)، وهو من أعظم ما يتقرب به المتقربون إلى ربهم ويتفتنون به رضاه.

﴿تسرون إليهم بالموءة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلمت﴾ أي: كيف تسرون الموءة للكافرين وتخفونها، مع علمكم أن الله عالم بما تخفون وما تعلنون؟!، فهو وإن خفي على المؤمنين، فلا يخفى على الله تعالى، وسيجازي العباد بما يعلمه منهم من الخير والشر، ﴿ومن يفعله منكم﴾ أي: موالاته الكافرين بعدما حذرهم الله منها ﴿فقد ضل سواه السبيل﴾ لأنه سلك مسلكاً مخالفاً للشرع وللعقل والمروءة الإنسانية.

ثم بين تعالى شدة عداوتهم، تبييهاً للمؤمنين على عداوتهم، ﴿إن يتفقوكم﴾ أي: يجيدوكم، وتسنح لهم الفرصة في أذاكم، ﴿يكونوا لكم

النبي ﷺ بشأنه، فأرسل إلى المرأة قيل وصولها وأخذ منها الكتاب.

وعاتب حاطباً، فاعتذر رضي الله عنه بعذر قبله النبي ﷺ، وهذه الآيات فيها النهي الشديد عن موالاته الكفار من المشركين وغيرهم، وإلقاء الموءة إليهم، وأن ذلك منافي للإيمان، ومخالفة لملئ إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام، ومناقض للعقل الذي يوجب الحذر كل الحذر من العدو، الذي لا يبقى من مجهوده في العداوة شيئاً، وينتهاز الفرصة في إيصال الضرر إلى عدوه، فقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا! عملوا بمقتضى إيمانكم، من ولاية من قام بالإيمان، ومعاداة من عاداه، فإنه عدو الله وعدو للمؤمنين.

فلا تتخذوا عدو الله ﴿وعداؤكم أولياء تلحقون إليهم بالموءة﴾ أي: تسارعون في مودتهم وفي السعي بأسبابها، فإن الموءة إذا حصلت، تبعها النصر والموالات، فخرج العبد من الإيمان، وصار من جملة أهل الكفران، وانفصل عن أهل الإيمان. وهذا المتخذ للكافر ولياً، عادم المروءة أيضاً، فإنه كيف يوالي أعدى أعدائه الذي لا يريد له إلا الشر، ويخالف ربه ووليه الذي يريد به الخير، ويأمره به، ويحسه عليه؟! وما يدعو المؤمن أيضاً إلى معاداة الكفار، أنهم قد كفروا بما جاء المؤمنين من الحق، ولا أعظم من هذه المخالفة والمشاقة، فإنهم قد كفروا بأصل دينكم، وزعموا أنكم ضلأل على غير هدى.

والحال أنهم كفروا بالحق الذي لا شك فيه ولا مرية، ومن رد الحق فمحال أن يوجد له دليل أو حجة تدل على صحة قوله، بل مجرد العلم بالحق^(٢)، يدل على بطلان قول من رده وفساده.

ومن عداوتهم البليغة أنهم

من شيء رينا عليك توكلنا وإليك أنبأ وإليك المصير * رينا لا نجعلنا فتنه للذين كفروا واغفر لنا رينا إنك أنت العزيز الحكيم * لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ومن يتول فإن الله هو الغني الحميد * عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة والله قدير والله غفور رحيم * لا يتهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين * إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون ﴿ذكر كثير من المفسرين، لرحمهم الله﴾، أن سبب نزول هذه الآيات الكريمات في قصة حاطب بن أبي بلتعة، حين غزا النبي ﷺ غزوة الفتح، فكتب حاطب إلى قريش^(١) يخبرهم بمسير رسول الله ﷺ إليهم، ليتخذ بذلك يداً عندهم لا [شكاً و] نفاقاً، وأرسله مع امرأة، فأخبر

(١) في ب: إلى المشركين من أهل مكة.

(٢) كذا في ب، وفي أ: مجرد رد الحق.

(٣) في ب: وابتغاء رضاه.

(٤) في ب: هذا من أعظم الجهاد في سبيله.

كل كثير، ويوجب له الاكثار من الاقتداء بعباد الله الصالحين، والأنبياء والمرسلين، فإنه يرى نفسه مفتقراً ومضطراً إلى ذلك غاية الاضطرار.

﴿ومن يتول﴾ عن طاعة الله والتأسي برسول الله، فلن يضر إلا نفسه، ولا يضر الله شيئاً، ﴿فإن الله هو الغني﴾ الذي له الغنى التام [المطلق] من جميع الوجوه، فلا يحتاج إلى أحد من خلقه [بوجه]، ﴿الحمد﴾ في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، فإنه محمود على ذلك كله.

ثم أخبر تعالى أن هذه العداوة التي أمر الله بها المؤمنين للمشركين، ووصفهم بالقيام بها أنهم ما داموا على شركهم وكفرهم، وأنهم إن انتقلوا إلى الإيمان، فإن الحكم يدور مع علته، فإن المودة^(٣) الإيمانية ترجع، فلا تأسوا أيها المؤمنون من رجوعهم إلى الإيمان، ف ﴿عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة﴾ سببها رجوعهم إلى الإيمان، ﴿والله قدير﴾ على كل شيء، ومن ذلك هداية القلوب وتقليبها من حال إلى حال، ﴿والله غفور رحيم﴾ لا يتعاطمه ذنب أن يغفره، ولا يكبر عليه عيب أن يستره، ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم﴾ وفي هذه الآية إشارة وبشارة إلى إسلام بعض المشركين، الذين كانوا إذ ذاك أعداء للمؤمنين، وقد وقع ذلك، والله الحمد والمنة.

ولما نزلت هذه الآيات الكريمة، المهيجة على عداوة الكافرين، وقعت من المؤمنين كل موقع، وقاموا بها أتم القيام، وتأثموا من صلة بعض أقاربهم المشركين، وظنوا أن ذلك داخل فيما نهى الله عنه، فأخبرهم الله أن ذلك لا يدخل في المحرم، فقال: ﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب

بدعاء ربي شقياً، فليس لكم أن تقتدوا بإبراهيم في هذه الحالة التي دعا بها للمشرك، فليس لكم أن تدعوا للمشركين، وتقولوا: إنا في ذلك متبعون لمة إبراهيم، فإن الله ذكر عذر إبراهيم في ذلك بقوله: ﴿وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم﴾.

ولكم أسوة حسنة في إبراهيم ومن معه، حين دعوا الله وتوكلوا عليه وأصابوا إليه، واعترفوا بالمعجز والتقصير، فقالوا: ﴿ربنا عليك توكلنا﴾ أي: اعتمدنا عليك في جلب ما ينفعنا ودفع ما يضرنا، ووثقنا بك يا ربنا في ذلك.

﴿واليك أنبنا﴾ أي: رجعنا إلى طاعتك ومرضاتك وجميع ما يقرب إليك، فتحن في ذلك ساعون، وبفعل الخيرات مجتهدون، وتعلم أنا إليك نصير، فسنستعد للقدوم عليك، ونعمل ما يقربنا الزلفى إليك^(٤)، ﴿ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا﴾ أي: لا تسلطهم علينا بذنوبنا، فيفتنونا ويمنعونا مما يقدرون عليه من أمور الإيمان، ويفتنوا أيضاً بأنفسهم، فإنهم إذا رأوا لهم الغلبة، ظنوا أنهم على الحق وأنا على الباطل، فازدادوا كفراً وطغياناً، ﴿واغفر لنا﴾ ما اقترنا من الذنوب والسيئات، وما قصرنا به من الأمور، ﴿ربنا إنك أنت العزيز الحكيم﴾ الذي يضع الأشياء مواضعها، فيعزتك^(٥) وحكمتك انصرتنا على أعدائنا، واغفر لنا ذنوبنا، وأصلح عيوبنا.

ثم كرر الحث [لهم] على الاقتداء بهم، فقال: ﴿لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة﴾ وليس كل أحد تسهل عليه هذه الأسوة، وإنما تسهل على من ﴿كان يرجو الله واليوم الآخر﴾ فإن الإيمان واحتساب الأجر والشواب، يسهل على العبد كل عسير، ويقلل لديه

أعداء﴾ ظاهرين ﴿وبسطوا إليكم أيديهم﴾ بالقتل والضرب، ونحو ذلك.

﴿والستهم بالسوء﴾ أي: بالقول الذي يسوء، من شتم وغيره، ﴿وودوا لو تكفروا﴾ فإن هذا غاية ما يريدون منكم.

فإن احتججتهم وقتلتم: نوال الكفار لأجل القرابة والأموال، فلن تغني عنكم أموالكم ولا أولادكم من الله شيئاً. ﴿والله بما تعملون بصير﴾ فلذلك حذرکم من موالاة الكافرين الذين تضركم مواليتهم، فذ كان لكم يا معشر المؤمنين ﴿أسوة حسنة﴾ أي: قدرة صالحة وائتمام ينفعكم، ﴿في إبراهيم والذين معه﴾ من المؤمنين، لأنكم قد أمرتم أن تتبعوا ملة إبراهيم حيناً، ﴿إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم وما تعبدون من دون الله﴾ أي: إذ تبرأ إبراهيم عليه السلام ومن معه من المؤمنين، من قومهم المشركين وما يعبدون من دون الله.

ثم صرحوا بعداوتهم غاية التصريح، فقالوا: ﴿كفرونا بكم وبداء﴾ أي: ظهر وبان ﴿بيننا وبينكم العداوة والبغضاء﴾ أي: البغض بالقلوب، وزوال مودتها، والعداوة بالأبدان، وليس لتلك العداوة والبغضاء وقت ولا حد، بل ذلك ﴿أبداء﴾ ما دمتم مستمرين على كفركم ﴿حتى تؤمنوا بالله وحده﴾ أي: فإذا آمنتم بالله وحده، زالت العداوة والبغضاء، وانقلبت مودة وولاية، فلکم أيها المؤمنون أسوة [حسنة] في إبراهيم ومن معه في القيام بالإيمان والتوحيد، والقيام بلوازم ذلك ومقتضياته، وفي كل شيء تعبدوا به لله وحده، ﴿إلا﴾ في خصلة واحدة وهي ﴿قول إبراهيم لأبيه﴾ أزر المشرك، الكافر المعاند، حين دعاه إلى الإيمان والتوحيد، فامتنع، فقال إبراهيم: ﴿لا أستغفرون لك و﴾ الحال أي لا ﴿أملك لك من الله من شيء﴾ لكنني أدعو ربي عسى أن لا أكون

(١) في ب: ما يزلنا إليك.

(٢) كذا في ب، وفي أ: فمن عزتك.

(٣) في ب: والمودة.

بعضتها^(٣)، فالنهي عن ابتداء تزويجها أولى، ﴿وَأَسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ﴾ أيها المؤمنون، حين ترجع زوجاتكم مرتدات إلى الكفار، فإذا كان الكفار يأخذون من المسلمين نفقة من أسلمت من نسائهم، استحق المسلمون أن يأخذوا مقابلة ما ذهب من نسائهم^(٤) إلى الكفار، وفي هذا دليل على أن خروج البضع من الزوج متقوم، فإذا أفسد مفسد نكاح امرأة رجل، برضاع أو غيره، كان عليه ضمان المهر، وقوله: ذلكم الحكم الذي ذكره الله وبينه لكم يحكم به بينكم^(٥)، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ فيعلم تعالى، ما يصلح لكم من الأحكام، ويشرع لكم ما تقتضيه الحكمة^(٦).

وقوله: ﴿وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ﴾ بأن ذهبت مرتدات ﴿فَعَاقِبْتُمْ فَاتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا﴾ كما تقدم أن الكفار إذا كانوا يأخذون بدل ما يفوت من أزواجهم إلى المسلمين، فمن ذهبت زوجته من المسلمين إلى الكفار وفاتت عليه، لزم أن يعطيه المسلمون من الغنيمة بدل ما أنفق^(٧).

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ فإيمانكم بالله يقتضي منكم أن تكونوا ملازمين للتقوى على الدوام.

﴿١٢﴾ ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يَبِيَعُكَ عَلَى أَنْ لَا يَشْرَكَنَّ بِاللَّهِ شَيْئاً وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِيهْتَانٍ يَفْتَرِيهِنَّ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبِإِيعَابٍ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ هذه الشروط المذكورة في هذه الآية تسمى «مبايعة النساء» اللاتي [كن] يبايعن على إقامة الواجبات المشتركة، التي تجب على الذكور والنساء في جميع الأوقات.

حكيم * وإن فاتكم شيء من أزواجكم إلى الكفار فعاقبتهم فأتوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون ﴿﴾ لما كان صلح الحديبية، صالح النبي ﷺ المشركين، على أن من جاء منهم إلى المسلمين مسلماً، أنه يرد إلى المشركين، وكان هذا لفظاً عاماً، [مطلقاً] يدخل في عمومه النساء والرجال، فأما الرجال، فإن الله لم ينه رسوله عن ردهم إلى المشركين وفاء بالشرط وتتميماً للصلح الذي هو من أكبر المصالح، وأما النساء، فلما كان ردهن فيه مفسد كثيرة، أمر الله المؤمنين إذا جاءهم المؤمنات مهاجرات، وشكوا في صدق إيمانهن، أن يمتحنوهن ويختبروهن، بما يظهر به صدقهن، من إيمان مغلظة وغيرها، فإنه يحتمل أن يكون إيمانها غير صادق بل رغبة في زوج أو بلد أو غير ذلك من المقاصد الدنيوية.

فإن كن بهذا الوصف، تعين ردهن وفاء بالشرط، من غير حصول مفسدة، وإن امتحنوهن فوجدن صادقات، أو علموا ذلك منهن من غير امتحان، فلا يرجعوهن إلى الكفار، ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ فهذه مفسدة كبيرة في ردهن راعاها الشارع، وراعى أيضاً الوفاء بالشرط، بأن يعطوا الكفار أزواجهن ما أنفقوا عليهن من المهر وتوابعه عوضاً عنهن، ولا جناح حينئذ على المسلمين أن ينكحوهن ولو كان لهن أزواج في دار الشرك، ولكن بشرط أن يؤتوهن أجورهن من المهر والنفقة، وكما أن المسلمة لا تحل للكافر، فكذلك الكافرة لا تحل للمسلم أن يسكها ما دامت على كفرها، غير أهل الكتاب، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا بِعَصَمِ الْكُوفَرِ﴾ وإذا نهى عن الإمساك

المسطين ﴿﴾ أي: لا ينهاكم الله عن البر والصلة، والمكافأة بالمعروف، والنقسط للمشركين، من أقاربكم وغيرهم، حيث كانوا بحال لم ينتصبا لقتالكم في الدين والإخراج من دياركم، فليس عليكم جناح أن تصلوهم، فإن صلتهم في هذه الحالة، لا محذور فيها ولا مفسدة^(٨)، كما قال تعالى عن الأبوين المشركين إذا كان ولداهما مسلماً: ﴿وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾.

[وقوله]: ﴿إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ﴾ أي: لأجل دينكم، عداوة لدين الله ولمن قام به، ﴿وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا بِكُمْ أَيْ: عاونوا غيرهم ﴿على إخراجكم﴾ نهاكم الله ﴿أَنْ تُولُوهُمْ﴾ بالموادة والنصرة، بالقول والفعل، وأما برکم وإحسانكم، الذي ليس يتناول للمشركين، فلم ينهاكم الله عنه، بل ذلك داخل في عموم الأمر بالإحسان إلى الأقارب وغيرهم من الأدميين، وغيرهم.

﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ وذلك الظلم يكون بحسب التولي، فإن كان تولى تاماً، صار ذلك كفراً مخرجاً عن دائرة الإسلام، وتحته ذلك من المراتب ما هو غليظ، وما هو دون ذلك.

﴿١٠ - ١١﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مِهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَأَتَوْهُنَّ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تُنكحُوهُنَّ إِذَا أَتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعَصَمِ الْكُوفَرِ وَأَسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا ذَلِكَمُ حُكْمُ اللَّهِ يُحْكِمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ

(٧) في ب: فعلى المسلمين أن يعطوه من الغنيمة بدل ما أنفق.

(٥) في ب: وبينه لكم حكم الله بينكم ووضحه.

(٦) في ب: فيشرعه بحسب حكمته ورحمته.

(١) في ب: ولا تبعة.

(٢) في ب: كان ذلك.

(٣) كذا في ب، وفي أ: بعضهما.

(٤) في ب: زوجاتهم.

بحمد الله ويعبدونه ويسألونه حوائجهم، ﴿وهو العزيز﴾ الذي قهر الأشياء بعزته وسلطانه، ﴿الحكيم﴾ في خلقه وأمره، ﴿يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون﴾ أي: لم تقولون الخير وتحثون عليه، وربما غدختم به وأنتم لا تفعلونه، وتنهون عن الشر وربما نزهتم أنفسكم عنه، وأنتم متلوثون به ومتصفون به، فهل تليق بالؤمنين هذه الحالة الذميمة؟ أم من أكبر المقت عند الله أن يقول العبد ما لا يفعل؟ ولهذا ينبغي للأمر بالخير أن يكون أول الناس إليه مبادرة، وللناهي عن الشر أن يكون أبعد الناس منه، قال تعالى: ﴿أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون﴾ وقال شعيب عليه الصلاة والسلام لقومه: ﴿وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه﴾.

﴿٤﴾ ﴿إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص﴾ هذا حث من الله لعباده على الجهاد في سبيله وتعليمهم كيف يصنعون وأنه ينبغي لهم أن يصفوا في الجهاد صفاً متراصاً متساوياً، من غير خلل يقع (٨) في الصفوف، وتكون صفوفهم على نظام وترتيب به تحصل المساواة بين المجاهدين والتعاقد وإزهاق العدو وتنشيط بعضهم بعضاً، ولهذا كان النبي ﷺ إذا حضر القتال، صف أصحابه، ورتبهم في مواقعهم، بحيث لا يحصل اتكال بعضهم على بعض، بل تكون كل طائفة منهم مهتمة بمركزها وقائمة بوظيفتها، وبهذه الطريقة تتم الأعمال ويحصل الكمال.

﴿٥﴾ ﴿وإذ قال موسى لقومه يا قوم

أصحاب القبور﴾ أي: يا أيها المؤمنون، إن كنتم مؤمنين بربكم، ومتبعين لرضاه ومجانبين لسخطه، ﴿لا تتولوا قوماً غضب الله عليهم﴾ وإنما غضب عليهم لكفرهم، وهذا شامل لجميع أصناف الكفار. ﴿قد يسوا من الآخرة﴾ أي: قد حرموا من خير الآخرة، فليس لهم منها نصيب، فاحذروا أن تولوهم فتوافقوهم على شرهم وكفرهم (٥)، فتحرروا خير الآخرة كما حرموا.

[وقوله: ﴿كما يشس الكفار من أصحاب القبور﴾ حين أنضوا إلى الدار الآخرة، ووقفوا على حقيقة الأمر (٦)، وعلموا علم اليقين أنهم لا نصيب لهم منها. ويحتمل أن المعنى: قد يسوا من الآخرة أي: قد أنكروها وكفروا بها، فلا يستغرب حينئذ منهم الإقدام على مساخته الله وموجبات عذابه وإيأسهم من الآخرة، كما يشس الكفار المنكرون للبعث في الدنيا من رجوع أصحاب القبور إلى الله تعالى.

تم تفسير سورة المحتجة،
والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة الصف [وهي] مدنية

﴿١-٣﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم سبح لله ما في السموات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم﴾ * يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون * كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون﴾ وهذا بيان لعظمته تعالى وقهره، وذو جميع الخلق (٧) له تبارك وتعالى، وأن جميع من في السموات والأرض يسبحون

وأما الرجال، فيتفاوت ما يلزمهم بحسب أحوالهم ومراتبهم وما يتعين عليهم، فكان النبي ﷺ يمثل ما أمره الله به، فكان إذا جاءت النساء يبابعنه، والتزمن بهذه الشروط بايعهن، وجبر قلوبهن، واستغفر لهن الله، فيما يحصل منهن من التقصير (١)، وأدخلهن في جملة المؤمنين بأن ﴿لا يشرك بالله شيئاً﴾ بأن يفرذن الله [وحده] بالعبادة.

﴿ولا يقتلن أولادهن﴾ كما يجري لئساء الجاهلية الجهلاء.

﴿ولا يزنين﴾ كما كان ذلك موجوداً كثيراً في البغايا وذوات الأخدان، ﴿ولا يأتين بهتان يفتريه بين أيديهن وأرجلهن﴾ والبهتان: الافتراء على الغير أي: لا يفترين بكل حالة، سواء تعلققت بهن وأزواجهن (٢)، أو سواء تعلق ذلك بغيرهم، ﴿ولا يعصينك في كل أمر تأمرهن به، لأن أمرك لا يكون إلا بمعروف، ومن ذلك طاعتهن [لك] في النهي عن النسيحة، وشق الثياب، وخش الوجوه، والدعاء بدعاء الجاهلية.

﴿فبايعهن﴾ إذا التزمن بجميع ما ذكر.

﴿واستغفر لهن الله﴾ عن تقصيرهن، وتطيباً لخواطرن، ﴿إن الله غفور﴾ أي: كثير المغفرة للعاصين، والإحسان إلى المذنبين التائبين، ﴿رحيم﴾ وسعت رحمته كل شيء، وعم إحسانه البرايا.

﴿١٣﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوماً غضب الله عليهم قد يسوا من الآخرة كما يشس الكفار من

(١) كذا في ب، وفي أ: يحصل من التقصير منهن.

(٢) في ب: بل.

(٣) في ب: مع أزواجهن.

(٤) في ب: بدعوى.

(٥) في ب: وشركهم.

(٦) في ب: وشاهدوا.

(٧) في ب: الخلق له.

(٨) في ب: يحصل.

الدالة على أنه هو، وأنه رسول الله [حقاً].

﴿قالوا﴾ معاندين للحق مكذبين له ﴿هذا سحر مبين﴾ وهذا من أعجب العجائب، الرسول الذي [قد] وضحت رسالته، وصارت أُبَيِّنَ من شمس النهار، يجعل ساحراً بَيِّنًا سحره، فهل في الخذلان أعظم من هذا؟ وهل في الافتراء أعظم^(٥) من هذا الافتراء، الذي نفى عنه ما كان معلوماً من رسالته، وأثبت له ما كان أبعد الناس منه؟

﴿ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب﴾ بهذا وغيره، والحال أنه لا عذر له، وقد انقطعت حجته، لأنه ﴿يدعى إلى الإسلام﴾ ويبين له براهينه وبياناته، ﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ الذين لا يزالون على ظلمهم مستقيمين، لا تردهم عنه موعظة، ولا يزجرهم بيان ولا برهان، خصوصاً هؤلاء الظلمة القائمين بمقابلة الحق لردوه، ولينصروا الباطل، ولهذا قال الله عنهم: ﴿يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم﴾ أي: بما يصدر منهم من المقالات الفاسدة، التي يردون بها الحق، وهي^(٦) لا حقيقة لها، بل تزيد البصير معرفة بما هم عليه من الباطل، ﴿والله متم نوره ولو كره الكافرون﴾ أي: قد تكفل الله بنصر دينه، وإتمام الحق الذي أرسل به رسله، وإشاعة^(٧) نوره على سائر الأقطار، ولو كره الكافرون، وبدلوا بسبب كراحتهم كل سبب يتوصلون^(٨) به إلى إطفاء نور الله فإنهم مغلوبون.

وصاروا بمنزله من ينفخ عين

مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين * ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعي إلى الإسلام والله لا يهدي القوم الظالمين * يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون * هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون يقول تعالى مخبراً عن عناد بني إسرائيل المتقدمين، الذين دعاهم عيسى ابن مريم، وقال لهم: ﴿يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم﴾ أي: أرسلني الله لأدعوكم إلى الخير وأنهاكم عن الشر، [وأبدي بالبراهين الظاهرة]، وما يدل على صدقي، كوني ﴿مصدقاً لما بين يدي من التوراة﴾ أي: جئت بما جاء به موسى من التوراة والشرايع السماوية، ولو كنت مدعياً للنبوّة، لجئت بغير ما جاءت به المرسلون، ومصدقاً لما بين يدي من التوراة أيضاً، أنها أخبرت بي وبشرت، فجئت وبعثت مصداقاً لها ﴿ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد﴾ وهو: محمد بن عبد الله بن عبد المطلب النبي الهاشمي.

فعمسى عليه الصلاة والسلام كالأنبياء^(٩)، يصدق بالنبي السابق، ويبشر بالنبي اللاحق، بخلاف الكذابين، فإنهم يناقضون الأنبياء أشد مناقضة، ويخالفونهم في الأوصاف والأخلاق، والأمر والنهي ﴿فلما جاءهم﴾ محمد ﷺ الذي بشر به عيسى ﴿بالبينات﴾ أي: الأدلة الواضحة،

لم تؤذوني وقد تعلمون أني رسول الله إليكم فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ [أي:] ﴿وإذ قال موسى لقومه﴾ موبخاً لهم على صنيعهم، ومقرعاً لهم على أذيتهم، وهم يعلمون أنه رسول الله: ﴿لم تؤذوني﴾ بالأقوال والأفعال ﴿وقد تعلمون أني رسول الله إليكم﴾

والرسول من حقه الإكرام والإعظام، والانتقياد^(١٠) بأوامره، والابتدأ لحكمه.

وأما أذية الرسول الذي إحسانه إلى الخلق فوق كل إحسان بعد إحسان الله، ففي غاية الوقاحة والجرأة والزيغ عن الصراط المستقيم، الذي قد علموه وتركوه، ولهذا قال: ﴿فلما زاغوا﴾ أي: انصرفوا عن الحق بقصدهم ﴿أزاغ الله قلوبهم﴾ عقوبة لهم على زيغهم الذي اختاروه لأنفسهم ورضوه لها، ولم يوقفهم الله للهدى، لأنهم لا يلبق بهم الخير، ولا يصلحون إلا للشر، ﴿والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ أي: الذين لم يزل الفسق وصفاً لهم، لا^(١١) لهم قصد في الهدى، وهذه الآية الكريمة نفي أن إضلال الله لعباده، ليس ظمناً منه، ولا حجة لهم عليه، وإنما ذلك بسبب منهم، فإنهم الذين أغلقوا على أنفسهم باب الهدى بعدما عرفوه، فيجازيهم بعد ذلك بالإضلال^(١٢) والزيغ الذي لا حيلة لهم في دفعه وتقليب القلوب [عقوبة لهم وعدلاً منه بهم] كما قال تعالى: ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون﴾.

﴿٦ - ٩﴾ ﴿وإذ قال عيسى ابن

(١) في ب: والقيام.

(٢) في ب: ليس.

(٣) كذا في ب، وفي أ: بالضلال.

(٤) في ب: كسائر الأنبياء.

(٥) في ب: أبلغ.

(٦) كذا في ب، وفي أ: التي.

(٧) في ب: وإظهار.

(٨) في ب: كل ما قدروا عليه مما يتوصلون.

ذلك، وصار إهمالهم له سبب تسليط الأعداء عليهم، ويعرف هذا، من استقرأ الأحوال ونظر في أول المسلمين وآخرهم.

﴿١٠ - ١٤﴾ يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب اليم * تؤمنون بالله ورسوله ومحاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون * يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم * وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين * يا أيها الذين آمنوا كونوا

أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله فأمّنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين * هذه وصية ودلالة وإرشاد من أرحم الراحمين لعباده المؤمنين، لأعظم تجارة، وأجل مطلوب، وأعلى مرغوب، يحصل بها النجاة من العذاب الأليم، والفوز بالتعظيم المقيم، وأتى بأداة العرض الدالة على أن هذا أمر يرغب فيه كل متبصر، ويسمو إليه كل لبيب، فكأنه قيل: ما هذه التجارة التي هذا قدرها؟ فيقال: «تؤمنون بالله ورسوله»

ومن المعلوم أن الإيمان التام هو التصديق الجازم بما أمر الله بالتصديق به، المستلزم لأعمال الجوارح، ومن أجل أعمال الجوارح الجهاد في سبيل الله^(٣)، فلهذا قال: «ومجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم» بأن تبذلوا نفوسكم ومهجمكم لمصادمة أعداء الإسلام، والقصد نصر دين الله وإعلاء كلمته، وتنفقون ما تيسر من

الشمس فيه^(١) ليطفئها، فلا على مرادهم حصلوا، ولا سلمت عقولهم من النقص والقدح فيها.

ثم ذكر سبب الظهور والانتصار للدين الإسلامي، الحسي والمعنوي، فقال، «هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق» أي: بالعلم النافع والعمل الصالح.

بالعلم الذي يهدي إلى الله وإلى دار كرامته، ويهدي لأحسن الأعمال والأخلاق، ويهدي إلى مصالح الدنيا والآخرة.

«ودين الحق» أي: الدين الذي يدان به، ويتعبد لرب العالمين الذي هو حق وصدق، لا نقص فيه، ولا خلل يعتريه، بل أوامره غذاء القلوب والأرواح، وراحة الأبدان، وترك نواحية سلامة من الشر والفساد^(٢) فما بعث به النبي ﷺ من الهدى ودين الحق، أكبر دليل وبرهان على صدقه، وهو برهان باق ما بقي الدهر، كلما ازداد به العاقل تفكراً، ازداد به فرحاً وتبصراً.

«ليظهره على الدين كله» أي: ليعليه على سائر الأديان، بالحجة والبرهان، ويظهر أهله القائمين به بالسيف والسنان، فأما نفس الدين، فهذا الوصف ملازم له في كل وقت، فلا يمكن أن يغالبه مغالب، أو يخاصمه مخاصم إلا فلججه ويلسه، وصار له الظهور والقهر، وأما المنتسبون إليه، فإنهم إذا قاموا به، واستاروا بنوره، واهتدوا بهديه، في مصالح دينهم ودنياهم، فكذلك لا يقوم لهم أحد، ولا بد أن يظهروا على أهل الأديان، وإذا ضيعوه واكتفوا منه بمجرد الانتساب إليه، لم ينفعهم

(١) في ب: ومثلهم كمثل من ينفخ عين الشمس.

(٢) كذا في ب، وفي أ: وترك للنواهي التي تعاطيها سبب الشر والفساد.

(٣) في ب: التي من أجلها الجهاد في سبيله.

(٤) في ب: وإن كان.

(٥) في ب: والخير الأخرى بالفوز.



أموالكم في ذلك المطلوب، فإن ذلك، ولو^(٤) كان كريهاً للنفوس شاقاً عليها، فإنه «خير لكم إن كنتم تعلمون» فإن فيه الخير الدنيوي، من النصر على الأعداء، والعز المنافي للذل والرزق الواسع، وسعة الصدر وانسراحه.

وفي الآخرة الفوز^(٥) بشواب الله والنجاة من عقابه، ولهذا ذكر الجزاء في الآخرة، فقال: «يغفر لكم ذنوبكم» وهذا شامل للصغائر والكبائر، فإن الإيمان بالله والجهاد في سبيله، مكفر للذنوب، ولو كانت كبائر.

«ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار» أي: من تحت مساكنها [وقصورها] وغرفها وأشجارها، أنهار من ماء غير آسن، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه، وأنهار من خمر لذة للشاربين، وأنهار من عسل مصفى، ولهم فيها من كل الثمرات، «ومساكن طيبة في جنات عدن» أي: جمعت كل طيب، من علو وارتفاع، وحسن بناء وزخرفة، حتى إن أهل الغرف من أهل